المستشرقون بين الأدبين :

القديم والحديث

بقلم الأستاذ محمد أمين حسونة

تلوح اليوم فى أفق الأدب العربى ظاهرة جديدة حساسة ، جديرة باهتمام أبناء الناطقين بالضاد والمتشبعين بروح التجديد ؛ هى أن بحوث المستشرقين والمستعربين ، قد بدأ يتحول رويداً رويداً من الأدب العربى القديم إلى الأدب الحديث ... وهم من حيث دراستهم لهذا النوع من الأدب ، إنما نراهم يقومون بنفس الخدمة التى كانوا يقومون بها من قبل ، فهم أبطال عالميون ، يحققون فكرة سامية طالما جاشت بصدورنا ، هى الوصول بالأدب المصرى الحديث إلى العالمية ؛ وهذه بلا شك أحسن دعاية طيبة لنا ، من حيث تعريف الغرب بشىء عن آدابنا العصرية وجهودنا ، وتصويرنا كأمة حية تريد أن تأخذ نصيبها ومكانتها فى الحياة .

إن أعجب ظاهرة بارزة فى هؤلاء المستشرقين خدمتهم للغة العربية ، وهم ليسوا من أبنائها ولا ينتمون إليها بصلة ، وقد يكون للبعض منهم مآرب استعمارية ، ولكن لم يكن هذا هو الغرض الأساسى ؛ فمنذ نيف وثلاثة قرون وهم يخدمون هذه اللغة عن صدق وإخلاص ، وقد أحيوا معالم حضارات ونهضات كادت تطمس لو لم يتصدوا لها ويتولوها بعنايتهم واهتمامهم ، فهناك آلاف الكتب — سواء التى نشرت بالعربية أم بلغاتهم — بعثوها من قبورها ، وأفنى البعض منهم زهرة حياته فى درسها ، وأفردوا لبعضها الفهارس التى تسهل على الباحث والقارىء طرق الدراسة ؛ ولا يستطيع إنسان أن ينكر أنهم أمناء فى النقل وتحرى الحقائق ، حتى إن كثيراً من الأئمة والأعلام ، إنما يعتمدون على كتبهم وبحوثهم ويثقون بها ثقة مطلقة ، وإنى أستشهد على صحة ذلك بقول رجل علامة فاضل ، هو الأستاذ محمد كرد على ، رئيس المجمع العلمى بدمشق ، حينما وقف وألقى محاضرته القيمة بدار مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة ، والتى كان عنوانها « أمهات الكتب العربية القديمة ، وعلماء المشرقيات فى الغرب » ، فقد جاء بها :

« وبعد ، فما يرح العارفون منا يقدرون عمل المستعربين حق قدره ، بل ويعجبون به ويحمدونه ؛ قال لى أستاذى علامة الشام ، الشيخ طاهر الجزائرى : أليس من الغريب أن يكون تفسير القاضى البيضاوى المطبوع فى ألمانيا أصح من الطبعة التى طبعت فى الآستانة ؟

وسمعت أستاذي العلامة الشيخ محمداً المبارك يقول: لاحظت مع الجماعة الذين نجتمع وإياهم على قراءة سيرة ابن هشام ـ أن الطابع الأفرنجي عنى بطبعها وخدمتها أكثر من عناية المصححين لها في المطبعة الأميرية في مصر، وهذا من عجيب تدقيق علماء المشرقيات وسلامة نظرهم، يحسنون طبع تفسير قرآننا وسيرة رسولنا أكثر مما نحسنه، على حين نحن لم نحرص في كل عصر على شيء حرصنا على علوم الدين ومقوماته، وأغفلنا ما عداها من العلوم إلا قليلا؛ ولولا عناية المستعربين باحياء آثارنا ما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من: طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومعجم البلدان، ومعجم الأدباء، وابن جبير، وابن بطوطة، ومعجم ما استعجم، وفتوح البلدان، وفهرست ابن النديم، ومفاتيح العلوم، وطبقات الاطباء، وأخبار الحكماء، والمقدسي، والاصطخري، وابن حوقل، والهمذاني، وشيخ الربوة، إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي أفسحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، ووقفنا على درجة حضارتها ـ لولا إحياؤهم ابن جرير، وابن الأثير، وأبي الفداء، واليعقوبي، والدينوري، والمسعودي، وأبي شامة، وابن القلقشندي، وحمزة الاصفهاني، وأمثالهم، لجهلنا تاريخنا الصحيح، وأصبحنا في عماية من أمرنا. ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر وكتب الأدب والعلم التي أحيوها لطال بنا المطال، ففي الذي أوردناه من أعمالها ـ فيما سلف ـ غنية؛ والمقصود بيان تلك المزايا والاشادة بالأيادي البيضاء التي أسداها القوم لآدابنا » اهـ.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الأستاذ كرد علي كان صادقا وأمينا فيما ذكره عن جهود هؤلاء الأبطال العالميين، وسواء أكان للبعض منهم مآرب استعمارية أو غير استعمارية، فلا يحق لنا أن نخلط بين هذا، وبين الجهود التي بذلوها وانتفعت بها اللغة والآداب العربية. وأذكر على سبيل المثال بعض أقطابهم وأعلامهم، أمثال: مرجليوث، وهارس خون، وصمويل لاى، وكارلايل في انجلترا؛ وليمان، وبروخ في ألمانيا؛ وجويدي الكبير، ونالينو، ولازوني، وكايتاني، وجريفيني، وبرنزلوميو في إيطاليا؛ ولافونت، وجسبار، وكلارزا، والشاعر الفونسو ياروـ الذي نقل أخيراً رباعيات الخيام ـ في إسبانيا؛ وكلسون، وخانيكوف، وكراتشفوسكي في روسيا؛ ومهرن، وموبرج، وسترستين في السويد؛ ومارسيل، وماسينيون في فرنسا... الخ.

وتتمثل جهود المستشرقين اليوم مجتمعة متضامنة في « دائرة المعارف الاسلامية »، وهي مجهود عنيف جبار، لم يتح لسواهم الاقدام على مثله ـ أعني وضع هذه المعلمة الكبيرة، والتي سوف تظهر قريباً، بثلاث لغات حية: الانجليزية، والفرنسية، والألمانية، وينشر فيها كل ما له صلة وما يتعلق بالاسلام من أدب وعلم وفقه وتشريع، وقد بدأوها بالحروف الأبجدية العربية، واختص كل مستشرق بكتابة الفرع الذي يحسن دراسته أكثر من غيره.

ونعود الآن إلى موضوعنا الأصلي فنقول: إن من بين المستشرقين الذين أظهروا اهتماماً

وغيرة على الأدب المصرى الحديث، الدكتور سنوك هيجرونيه « Snouk Hurgronje » الهولندى، وأذكر أنه استقبل مرة فى المربون فلقبه المسيو ماسينيون المستشرق الفرنسى المعروف بـ « شيخ المستشرقين » .

والحقيقة أن الدكتور سنوك يعتبر اليوم أكبر مستشرق ، وأثمن ما نملكه فى الأدب العربى من ذخيرة ؛ ويرجع اهتمامه بالأدب المصرى وبالمباحث الاسلامية إلى طبيعة وظيفته ، فهو مربى ولية العهد فى هولندا ؛ ومن القواعد المرعية هناك دراسة اللغة العربية لأولياء العهود والحكام نظراً إلى المستعمرات الاسلامية التى تبسط هولندا نفوذها عليها ، وهو إلى غير هذا يشغل وظيفة مراقب لشؤون الدينية والاجتماعية فى المستعمرات الهولندية بالشرق، ويراه كثير من الشرقيين رجلا دقيقاً منصفاً، وقد وصفه بذلك عطوفة الأمير شكيب أرسلان فى إحدى رسائله .

وكانت هولندا منذ أعوام قلائل قد أخذت بعض عادات أهل جاوة، ووضعتها فى قانون خاص حاولت بواسطته إجبار الأهالى على الخضوع لمراسيمه ؛ غير أنهم ثاروا على هذا القانون ، فانتدبت الحكومة الهولندية الدكتور سنوك ، الذى سافر إلى هناك ووضع تقريراً مسهباً ، كان من نتائجه أن عدلت الحكومة عن رأيها ، وسحبت هذا القانون لما كان فيه من المخالفة الصريحة لقواعد الشريعة المحمدية السمحاء ، وقد استفتته فرنسا بالأمس فى القوانين الجديدة التى تحاول تطبيقها على البربر فى شمال أفريقيا ـ وهم مسلمون لا شك فى إسلامهم ـ وقد وضع بالفعل تقاريره التى لا تزال موضع بحث وتمحيص .

وناحية اهتمام الدكتور سنوك بالأدب العربى الحديث ، هى أنه يبحث فى فرع خاص منه، هو كل ما يكتب فى الفلسفة الاسلامية ، وهو يعتبر حجة فى هذا الباب ؛ ولعل القراء يلاحظون أن الدكتور زكى مبارك أهدى « الرسالة العذراء » إلى الدكتور سنوك ، نظراً إلى أن الأخير وضع رسالة عنه بالهولندية بمناسبة كتابه « الأخلاق عند الغزالى » الذى نال به إجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية .

ويلى الدكتور سنوك فى الاهتمام بالأدب العربى الحديث، الأستاذ ماسينيون (Massijnon)، بالكوليج دى فرانس ومعهد الدراسات الاسلامية فى المربون ، ووجهة اهتمامه بهذا النوع من الأدب : الصحافة المصرية ؛ وأذكر على سبيل المثال ، أنه وضع أخيراً دليلا مفصلا جداً عن جميع النشرات الدورية باللغة العربية فى العالم ، وله شغف واهتمام بوضع الاحصائيات عن القبائل المجهولة التى لها أدب خاص ، هذا فى حين أنك تجده مغرماً بصفة خاصة بتعقب التطورات الاجتماعية فى الشرق ، فهو يعرف مثلا عن الشيعة فى مدينة القاهرة ما لا يعرفه القاهريون أنفسهم ، ويصدر مجلة تحت اسم « الدراسات الاسلامية » ، وفى هذه المجلة تنشر سجلات دورية عن حركة النشر فى العالم الاسلامى، وحركات التطور والاصلاح، حتى عن دقائق الأزهر

التى قد تخفى علينا، وله إلمام تام بمعرفة الأدباء المصريين، الذين يهتمون بالفلسفة الاسلامية خاصة، وهو من هذه الناحية تلميذ موفق للدكتور سنوك .

والأستاذ « جب » الانجليزى له بحوث قيمة ، كان للدكتور هيكل بك فضل السبق فى إذاعة ترجمتها على صفحات « السياسة الأسبوعية » ، وهى مجموعة آراء نفيسة عن الأدب العربى فى القرن التاسع عشر ، وتحليل مسهب لأعلام المدرسة الحديثة .

وفى روسيا اليوم نهضة وثابة واهتمام كبير بالأدب العربى الحديث ، ويقود هذه النهضة الأستاذ كراتشفوسكى المستشرق الكبير ، وأول من درس فى الغرب البلاغة العربية العصرية درساً مطرداً ، وقد زار سوريا ومصر حوالى عام ١٩٠٨، وهو صديق حميم للأدباء المصريين ، وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمى العربى فى دمشق فى عام ١٩٢٣، والقراء يذكرون دون شك أنه احتفل أخيراً فى « ليننجراد » باليوبيل الفضى لدراسته اللغة العربية . وقد نشرت السيدة «فاسيلفا » أخيراً ـ تحت إشراف الأستاذ كراتشفوسكى ـ مختارات من الأدب المصرى الحديث، صدر بمقدمة نفيسة عن تطور البلاغة العربية فى أواخر القرن التاسع عشر . والأستاذ بندلى جوزى ينشر الآن سلسلة أبحاث قيمة فى فترات متفاوتة على صفحات « المقتطف »، والذين يطالعون الأستاذ جوزى ، يحكمون بما للرجل من السعة والتبحر فى الآداب العربية والحديثة منها خاصة .

وفى المانيا اليوم ، طائفة من المستشرقين ممتازة ، على رأسها الاستاذ كرامفار رئيس الجمعية الألمانية للدراسات الاسلامية ، وأستاذ الأدب العربى بكلية اللغات الشرقية ببرلين ، وهو ينشر الآن كراسات دورية باللغتين العربية والألمانية عن الأدب المصرى ، وقد وضع أخيراً ـ بمساعدة الأستاذ طاهر ضميرى ـ كتاباً تحت عنوان «قادة الأدب العصرى»، وقد حوى الكتاب تراجم وتحليل لأسلوب كتابنا المعاصرين أمثال: الدكتور هيكل، والدكتور طه حسين، والأساتذة : مصطفى ، وعلى عبد الرازق ، وسلامه موسى، وعنان، والمازنى ، والعقاد ... الخ .

وفى الجامعة المصرية طائفة مختارة من المستشرقين المتشبعين بروح الآداب العصرية ، وعلى رأسها الأستاذ « ا . شادة » مدير دار الكتب المصرية السابق ، وأستاذ الأدب العربى بجامعة هامبرج ؛ كذلك الأستاذ شتراز برجر الألمانى ، والأستاذ باكستون المستشرق الانجليزى المعروف، ومترجم كتاب الأيام للدكتور طه حسين ، وهو مهتم الآن بوضع كتاب عن القصة المصرية وتطورها ومنتخبات قصصية لمشاهير الكتاب المصريين.

أما فى سويسرا ، فهناك الأستاذ ويدمار ، وهو يبدى غيرة وتفاؤلاً أكثر من غيره ، ويتولى اليوم نشر سلسلة كتب باللغة الألمانية عن الأدب المصرى الحديث ، حازت إعجاب المهتمين بالأدب العربى جميعاً ، وقد بدأ بدراسة اللغة العربية منذ ثمانية عشر عاماً تقريباً.

[البقية على الصفحة رقم ٤٨٧]